

حول مناهج كتابة السيرة النبوية

✍ معتر الخطيب *

إن السيرة النبوية هي تجسيد وتمثيل تلك المبادئ النظرية المتعالية التي تضمنها القرآن، وهي برهان عملي على إمكان تطبيق الإسلام ديناً ودولة، فبعد أن تنزل الدستور الإلهي النظري، وتم تجسيده تجسيداً نموذجياً ممثلاً بشخصية رسول الله ﷺ. تحاول هذه الورقة تقديم نماذج "بجملة" عن بعض مناهج السيرة النبوية المختلفة فتستهل بتحديد مصطلحات البحث، ثم تشير إلى عملية التلوين، ومنهج التلوين في الصدر الأول، ثم تعرض لبعض أقوال المحدثين النقدية في بعض كتب السيرة الأولى، ثم تبحث منهج السيرة الصحيحة، ثم مناهج المستشرقين، وتختتم بإجمال منهج المدرسة الإصلاحية. وسلكت في هذا البحث طريقة الإجمال، ومع ذلك لم نخل المقام من إيراد الاستشهادات، واتبعت المنهج الوصفي التحليلي في عرض القضايا. ولأنني لم ألتزم استيعاب كل المناهج، كما أنني لم أفصل فيها، جعلت عنوان الورقة (حول مناهج كتابة السيرة النبوية)، لكن حسبي أنني عرضت تصوراً واضحاً وبجملات لأهم المناهج.

* ماجستير في الحديث وعلوم السنة، جامعة أم درمان، وطالب دكتوراه في قسم الحديث وعلوم السنة.

١ - تحديدات

قبل الكلام على المناهج لا بد من تحديد المصطلحات الواردة في هذا البحث والتي قد تبدو مترادفة حيناً، ومختلفة حيناً آخر، وهي: السنة - السيرة - الحديث. فالحديث في اصطلاح المحدثين: هو ما أُضيف إلى النبي ﷺ (من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. لكن الأصوليين يستشون من التعريف كلمة (صفة)؛ لأنهم يبحثون في الأمور التشريعية العملية، والملاحظ أنهم غالباً ما يستعملون لفظ السنة بدل الحديث، أما المحدثون فإنما يستعملون لفظ الحديث أكثر من السنة، وإن أطلقوا السنة فهي - عندهم - تشمل الطريقة العملية، ومن ثمّ سميت السنن الأربعة (سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه) وغيرها؛ لاعتنائها بالأحكام العملية، والأكثر في اصطلاح المحدثين أن السنة والحديث مترادفان، وهما يشملان أقوال النبي والصحابة والتابعين، وهو ما اصطُِّلِح عليه بالحديث المرفوع، والموقوف، والمقطوع، ومن ثم قيل: سنة الشيخين، وإن كان الأليق أن يُلاحظ المعنى اللغوي لكلمة السنة، وهو الطريقة، فيقال لكل ما يتعلق بالتطبيق العملي (الفعل): سنة، ولكل ما يتعلق بالأقوال: حديث.

أما السيرة: فهي - في تطبيق المحدثين - جزء من الحديث؛ حيث إن كتب الحديث أفردت باباً لها ضمن الأبواب دُعي باسم (المغازي والسير) إلى جانب أبواب الطهارة، والصلاة، والتفسير وغيرها.

والجدير بالملاحظة أن كثيراً من كتب السيرة الأولى سميت بـ (المغازي)، كمغازي أبان بن عثمان (١٠١ هـ) ومغازي عامر بن شراحيل الشعبي (١٠٣ هـ)، ومغازي موسى بن عُقبة (١٤٠ هـ)، وتذكر كتب التراجم أن ابن إسحاق كان إماماً في المغازي، وهذا التعبير هو الشائع على لسان العلماء في ذلك العصر كالشافعي، وإن كان المعنى اللغوي للسيرة والسنة واحداً؛ فكلاهما بمعنى الطريقة. وثمة اصطلاحات أخرى للسنة في حقل علم العقيدة وعلم الفقه لا تعيننا هنا.

والسيرة في تطبيق مؤرخي السيرة هي حياة النبي (بكل ملاحمها وتفصيلاتها، فهي أقرب إلى التأريخ التفصيلي للإسلام ممثلاً بشخصية النبي وخلفائه الراشدين وصحابته الكرام والأحداث التاريخية التي دارت بين الإسلام ومناهضيه. بل إن سيرة

والذي يبدو لي أن كثيراً من المصنفات قبل ابن إسحاق كانت في الغالب تقتصر على ذكر المغازي وبعض ما يتصل بها، حتى جاء ابن إسحاق فوضع كتابه على ثلاثة أقسام "المبتدأ"، وتناول فيه تاريخ الأنبياء إلى نبينا ﷺ، و "المبعث"، وخصصه لحياة الرسول، و "المغازي"، تعرض فيه لنشأة الدولة الإسلامية في المدينة، وتحوّل الدعوة من الدفاع إلى الهجوم .. حتى جاء ابن هشام (٢١٨هـ) واختصره، ومن ثمّ لقي من العناية ما لقي واعتبر عمدة المغازي والسير؛ لاشتماله على أحداث السيرة عامة.

٣ - منهج تدوين السيرة في الصدر الأول

يغلب على المؤرخين حتى ابن خلدون (٨٠٨هـ) منهج جَمْع الأخبار وسرد الأسانيد دون أي تحليل، وفيما يخص الترتيب فقد اعتمد وهب بن مُنبّه (١١٠هـ) وابن إسحاق (١٥١هـ) على التأريخ من بدء الخليقة وكان ذلك أول محاولة - فيما نعلم - للتأريخ الشامل ثم تبعهما - في التأريخ العام للعالم - الدينوري (٢٨٢هـ)، واليعقوبي (٢٨٤هـ)، ثم الطبري (٣١٠هـ) الذي يُعدُّ أبرز كتاب التاريخ وأهمهم، وقد اعتمد بشكل رئيس على الإسناد؛ لكونه محدثاً. واعتمد معمر بن راشد (١٥٣هـ) في مغازيه على ترتيب الأخبار على أساس موضوعي، على نحو ما فعل في (الجامع) الذي يعد من أوائل المجموعات الحديثة المدونة في السنة.

ولكن كتب السيرة والتاريخ لم تخضع لمنهج النقد الذي كان معزولاً عن الرواية التاريخية ومستمرّاً بشكل ضخم في الرواية الحديثة فيما عدا الكتب التي أفردت باباً خاصاً للمغازي والسير من الكتب الستة كالبخاري مثلاً، وهذا يعود لسببين:

الأول: موقع كل من الروايتين، وأهميتهما؛ فالرواية الحديثة تتعلق بالحلل والحرام، ولذلك تساهل فيها المحدثون أنفسهم، ومن ثم وجدناهم تكلموا في ابن إسحاق ونزلوا بروايتهم الحديثة عن من يحتج به، بينما اعتبروه إمام أهل المغازي، وقد يكون تساهله في قبول الأخبار سبب المنافرة بينه وبين الإمام مالك الذي كان يشترط الصحيح ويشدّد

٧ انظر: الكتاني، الرسالة المستطرفة، تح: محمد المنتصر الكتاني (بيروت: البشائر الإسلامية، ط ٤، ١٩٨٦م).

ص ٤١، ٤٢.

٨ انظر الخطيب، الكفاية، تح: أبي عبد الله السورقي، إبراهيم المدني (المدينة: المكتبة العلمية، د. ط. ت) ص ١٣٤.

٩ المراد المصطلح الحديثي (حجة)، وهو خلاف (ثقة)، فابن إسحاق ثقة حسن الحديث ولكن ليس حجة.

وقال ابن عدي: "قد فتشت أحاديثه - يعني ابن إسحاق - فلم أجد في أحاديثه ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ أو يهم كما يخطئ غيره، ولم يتخلف في الرواية عنه الثقات والأئمة وهو لا بأس به". قال الذهبي: "لا ريب أن ابن إسحاق كثر وطول بأنساب مستوفاة اختصارها أملح، وبأشعار غير طائفة حذفها أرجح، وبآثار لم تصحح، مع أنه فاته شيء كثير من الصحيح لم يكن عنده، فكتابه محتاج إلى تنقيح وتصحيح، ورواية ما فاته".

ب - الواقدي

قال الخطيب: "وأما الواقدي فسوء ثناء المحدثين عليه مستفيض، وكلام أئمتهم فيه طويل عريض.. قال الشافعي: "كتب الواقدي كذب..."، فما روي من هذه الأشياء عمن اشتهر بتصنيفه وعُرف بجمعه وتأليفه: هذا حكمه، فكيف بما يورده القصاص في مجالسهم ويستميلون به قلوب العوام من زخارفهم؟! إن النقل لمثل تلك العجائب من المنكرات، وذهاب الوقت في الشغل بأمثالها من أخسر التجارات".

وقال أبو داود: "ليس ننظر للواقدي في كتاب إلا تبين لنا أمره، وروى في فتح اليمن وخبر العنسي أحاديث عن الزهري ليست من حديث الزهري".

وقال ابن حبان: "كان - يعني الواقدي - يروي عن الثقات المقلوبات، وعن الأئمة المعضلات، حتى ربما سبق إلى القلب أنه كان المتعمد لذلك". وقال ابن عدي: "متون أخبار الواقدي غير محفوظة، هو بين الضعف، والبلاء منه".

ج - موسى بن عقبة

قال الشافعي: "وليس في المغازي أضح من كتاب موسى بن عقبة مع صغره، وخلوه من أكثر ما يُذكر في كتب غيره".

١٤ الذهبي، السير، ١١٥/٦-١١٦.

١٥ الخطيب، الجامع، ١٦٣/٢.

١٦ الخطيب، تاريخ بغداد (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط. ١٥/٣).

١٧ ابن حبان، المجروحين، تح: محمود زايد (حلب: دار الوعي) ٢٩٠/٢.

١٨ ابن عدي، الكامل، تح: يحيى غزاوي (بيروت: دار الفكر، ط ٣، ١٩٨٨م) ٢٤٢/٦.

ومن توجه إلى جمع السيرة الصحيحة من المعاصرين لم يستطع أن يلتزم بالصحيح والحسن بالاصطلاح الحديثي؛ لأن الأخبار الموجودة بهذه الدرجة لا تغطي جوانب السيرة الكاملة، كما هي في سيرة ابن هشام وغيره، ومن ثم كان لا غناء لكتاب السيرة عن كتب المغازي والتي فيها أخبار قد تخلو من الأسانيد أصلاً. أما الآيات القرآنية المتعلقة بالسيرة النبوية: فهي لا تتعدى بضع عشرات من الآيات، وهي في مجملها تتحدث عن المغازي (كبدر، وأحد، وحنين، والعسرة...)، ونحو ذلك من البيعة ونشأة الرسول وغير ذلك، وهي مع ذلك تمتاز بالإيجاز الشديد، ويعود ذلك إلى الفارق بين الصياغة الأدبية التي امتاز بها القرآن والصياغة التاريخية، فضلاً عن أن القرآن يكتفي بالقدر الذي يحقق العبرة والعظة.

٦ - مناهج المستشرقين في كتابة السيرة

إن الكلام عن مناهج المستشرقين يقتضي تتبع كتاباتهم وتحليلها والتدليل على ذلك بالنقولات عنهم، وهو ما يحتاج إلى مطولات، لكن حسبنا أن نسجل هنا بعض الملحوظات المنهجية على دراسات المستشرقين، ثم نحاول أن نشير إلى أصول مناهجهم على وجه الإجمال.

- إن المستشرقين الذين يكتبون عن الإسلام ونبيه لا يمثلون اتجاهًا واحدًا وإن كان ثمة تقاطعات بينهم؛ لأنهم أبناء ثقافة واحدة تختلف جذريًا عن حضارة الإسلام وثقافته، ولذلك من العسير على المستشرق أن يدرك أثر الفكرة الدينية وحركتها في التاريخ وتأثيرها على النفس البشرية كإدراك المسلم المؤمن؛ فالمؤرخ غير المسلم يتعامل بتجرد شديد (بمنهج مادي صارم) مع الحدث التاريخي، لكنه يغفل دوافع النفس وكوامنها في خلق الحدث وتوجيهه، لأنه يتعامل مع حدث غريب عنه، ومن ثم فهو لا يتفاعل معه، ولا تخلو تلك الدراسات من حضور طاعٍ لنموذج يقاس عليه هو

٢٣ من هنا نجد أن سيرة: محمد أبي شعبة التي عنوانها بـ (السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة) ليست دقيقة لأنها لا تختلف كثيراً عن كتب السير المعروفة، وإن كان اعتنى بذكر الآيات، ولو طبق ما التزمه في العنوان لكانت سيرته أصغر مما هي عليه الآن.

٢٤ انظر: توينبي، دراسة في التاريخ، ٤٥٣/٣. عن وات، محمد في مكة، ترجمة شعبان بركات (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، د. ت) ص ٢٠.

- إن قضية الوحي التي هي أساس الرسالة الإسلامية غير خاضعة لمقاييس العقل والمناهج المادية التي يستلهما الغربيون وغيرهم.

- إن المستشرق الذي لا يؤمن بقضية نبوة محمد ﷺ سيسعى منذ البداية إلى تأويل أو تفسير ظاهرة الوحي وما ينتج عنها (القرآن) بما يخضع للمقاييس المادية التي يتبناها، وهو ما حدث حيث تم تفسير تلك الظاهرة وفق أسس التحليل النفسي لفرويد:

"لقد حالت الأوهام والأباطيل زمنًا طويلًا دون درس مصادر الإسلام في أوروبا دراسة علمية، ثم جدّ في البحث العلمي بعض العلماء في القرن التاسع عشر، ومنهم كوسان دوبرسفال، وموير، وفيل ومرجليوث، ونولدكه وسيرنجر، وسنوك هورغرونجه، ودوزي، ثم تناوله مؤخرًا كايثاني، ولانمس، وماسينيون، ومونته وكازنونا وبيل وهوار، وهوداس، وأرنولد، ومارسيه، وغريمه، وغولد سيهر، وغود فروا دومونين وغيرهم".

وافتح جوستاف فايل عام ١٨٤٣م حِقبة جديدة في البحث في حياة محمد ﷺ؛ فقد ظهر أول عرض تاريخي نقدي لحياة محمد من تأليفه . ويتلخص منهج فايل - كما يقول بفاغوللر - في ما يأتي:

أ. بحث ما قرره العرب حول مؤسس الإسلام بحثًا نقديًا، وعزل الوقائع التاريخية الموثوق بها عن الأساطير المتأخرة.
ب. بحث طبيعة محمد بوصفه إنسانًا ونبيًا ومشرعًا دون الوقوع تحت أسر مذهبي.

ج. وأخيرًا رتب القرآن - الذي يمثل مزيجًا مختلف الألوان من الأناشيد والصلوات والعقائد والمواعظ والقوانين والتنظيمات - ترتيبًا زمنيًا.

ويجمل بفاغوللر تقويم كتب السيرة من كتاب ميشيل بوديه الصادر سنة ١٦٢٥م إلى كتاب جوستاف فايل سنة ١٨٤٣م فيقول: "كانت كل الكتب عن

٢٧ إميل درمنغم، حياة محمد، ترجمة عادل زعير (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط٢،

١٩٨٨م) ص ١٠.

٢٨ جوستاف بفاغوللر، فصول مزجّة من كتاباته، ص ١٣١.

الاجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة وعلى الأخص إزالة الفروق الصارخة من خلال فرض "ضريبة" على الأغنياء (الزكاة)، وتخويفهم من عذاب الآخرة بوصفها وسيلة للضغط النفسي.

وهذه الإسقاطات كثيرة في مناهج المستشرقين؛ فهذا رودنسون ينطلق في تخيل شخصية النبي ﷺ معتمداً على منهج التحليل النفسي عند فرويد . ويفسّر مونتغمري واط الوحي بأنه شعور داخلي صادق، وسبب الفرق بين القرآن والحديث أن الحديث صدر عن العقل الظاهر والقرآن صدر عن العقل الباطن.

ويعتمد كثير من المستشرقين منهج الشك الديكارتى في تعاملهم مع الخبر التاريخي متجاهلين تماماً معايير النقد الإسلامية، ومن ثم كان بدهياً أن تقع مصادمات كثيرة بين دراسات المستشرقين ودراسات المسلمين، فهذا رودنسون يشكك في محبة أبي طالب للنبي متسائلاً: "ألم تكن هذه القصص من قبيل تحريف سير القديسين؟!"، وكذلك يشكك في قصة الحجر الأسود، وغير ذلك. بل إن واط شك في ولادة النبي بعد وفاة والده ، وبناء على ذلك شك الكثيرون في حادثة "شق الصدر" والمعجزات وغيرها. يقول درمنغم: "لقد ابتعدت عمداً عما هو ظاهر الوضع، وعن المعجزات التي اخترعت بعد وفاة النبي بقرنين، وعما هو غير محتمل".

إن جُلَّ المستشرقين لا يرون الرسالة المحمدية إلا في سياقها البشري التاريخي، ومن ثم يقول واط: "يمكننا فهم القرآن باعتباره مجموعة أفكار قابلة للدراسة في

٣٣ انظر آراء هيوبرت في: ساسي، الظاهرة الاستشراقية، ١١٦/٣.

٣٤ السابق، ٧٣/٣.

٣٥ انظر كلامه في: أكرم العمري، "موقف الاستشراق من السنة والسيرة"، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، ٨/ع، سنة ١٩٩٥م، ص ٦٠، ٦١.

٣٦ انظر كلامه في: ساسي، الظاهرة الاستشراقية، ٦٨/٣.

٣٧ انظر: وات، محمد في مكة، ٦٥/١. عن ساسي، الظاهرة الاستشراقية، ٦١/٣.

٣٨ درمنغم، حياة محمد، ص ١٢.

بالوضعية؛ فتعاليمه هي مشاريع أنتجتها البيئة، وكانت آلام محمد الإنسان هي الحافز لذلك الخيال الخلاق الذي أبدع تلك المشاريع، وما المعجزات إلا نتاج ذلك الخيال الصادق - وفق بعضهم - أو الكاذب عند آخرين، ومن ثم وجدنا غير واحد يعتمد منهج التحليل النفسي الذي وضع أسسه فرويد؛ لتحليل شخصية محمد ﷺ مبدع تلك (المشاريع) !!

ونحن هنا نستبعد تلك الأطروحات الاستشراقية الغارقة في حُمى المذهبية، والتي لم تتورع عن وصف النبي بأسوأ الأوصاف، وفي هذا يقول مونتغمري واط: "إنه ليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حُطَّ من قدرها - في الغرب - كمحمد، فالكتاب الغربيون أظهروا ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عنه".

ويحسن بي أن أختتم الكلام على منهج المستشرقين بتقويم نقدي إجمالي لدراسات المستشرقين قدّمه درمنغم إذ يقول: "ومن المؤسف حقاً أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين في النقد - أحياناً - فلم نزل كتبهم رسماً، وكانت عامل هدم على الخصوص ... ومن المحزن ألا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على النفي ... ومن دواعي الأسف أن كان الأب لامنس - الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين، ومن أشدهم تعصباً - شوّه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبي الإسلام؛ فعند هذا العالم اليسوعي - الذي أفرط في النقد فوجّه آخرون مثله إلى النصرانية - أن الحديث إذا وافق القرآن كان منقولاً عن القرآن؛ فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة بدلاً من أن يؤيد أحدهما الآخر؟!.

إن تلك الدراسات الاستشراقية الكثيرة التي عملت على احتواء الشرق الإسلامي أسهمت كثيراً في تكوين الوعي الغربي وفق الصورة التي رسمتها عن الشرق، وكان لها كبير الأثر في تعويق الغربي وتحصينه ضد الإسلام الذي كان - ولا يزال - يوصف بـ (دين الأتراك)، أو (العقيدة التركية)، ويوصف النبي ﷺ بـ (نبي

٤٣ نقله: ساسي، الظاهرة الاستشراقية، ١٢٠/٣.

٤٤ درمنغم، حياة محمد، ص ١٠ - ١١.

التأسيس لمرجعية العقل وتحرير العلاقة بين العقل والوحي، فإذا تعارض العقل مع النقل قُدِّمَ العقل ويبقى في النقل طريقان:

الأول: التسليم بصحة النقل مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه (المتشابه).

الثاني: تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة.

لكننا نجد أن رواد المدرسة الإصلاحية نهجوا الطريق الثاني (التأويل). وهذا يتعارض مع منهج المدرسة الأثرية (أصحاب الحديث) الذين يقدمون النص على العقل مطلقاً ، ومن ثم فإن قضية المعجزات مما يتعارض فيه العقل مع النقل وفق رؤية المدرسة الإصلاحية فكان المخلص من ذلك هو التأويل لدرء ذلك التعارض.

سأحاول تأصيل موقف الشيخ محمد عبده من المعجزات - وفق فهمي له - ثم أعرض لنموذج من تأويلاته . يقوم موقف محمد عبده على مقدمتين:

الأولى: السنن الكونية ثابتة لا تتغير ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ {الأحزاب: ٦٢} و{الفتح: ٢٣}، ﴿وَلَا تَجِدُ لُسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ {الإسراء: ٧٧}.

الثانية: البدهيات العقلية ثابتة لا تتخلف (كاستحالة اجتماع النقيضين)، وبناء على ذلك يجب أن تكون المعجزة خارقة للعادة، جائزة عقلاً؛ فالشيخ إن لم يجد للتأويل سيلاً يؤمن بالمعجزة على ظاهرها، لكن هذه المعجزات انتهت بـ (ختم النبوة)، وأضحت السنن الكونية ثابتة لا تتغير لأي بشر، ومن ثم فهو لا يؤمن بالكرامات الخارقة، ذلك أن الناس دخلوا في مرحلة الرشد.

ومن تأويلاته قوله: إن حجارة السجّيل في حادثة الفيل هي مرض الجدري والحصبة مستنداً إلى قول عكرمة ويعقوب بن عتبة: إن أول ما ظهر الجدري في شبه

٤٧ انظر محمد عمارة، الأعمال الكاملة، ٢/٢٨٢.

٤٨ انظر: ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، نج: عبد اللطيف عبد الرحمن (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٧م) ٤/١.

٤٩ انظر كلام محمد عبده في المعجزات في: محمد عمارة، الأعمال الكاملة، ٤/١٨٣، ومقدمة كتابه: الإسلام والنصرانية.

هذه أهم المناهج التي خضعت لها السيرة النبوية، ونختتم بحثنا بالتأكيد على ضرورة إعادة كتابة السيرة (التطبيق العملي للإسلام) وفق مناهج جديدة تجمع بين دقة المنهج العلمي وصحة الأخبار من جهة، وبين عمق الإيمان بنبوة صاحب السيرة (من جهة أخرى).

يجب أن ندرس السيرة النبوية من جميع جوانبها (النبوية والبشرية)، فندرس حياة محمد ﷺ بوصفه نبياً، وإماماً (قائد دولة)، ومفتياً، وقاضياً، وإنساناً (زوجاً، وأباً، وجداً)، كما ينبغي دراسة تفاعلات هذه النواحي فيما بينها؛ لدراسة أثر الوحي والفكرة الدينية في عملية بناء وتغيير المجتمعات.